10 - السيدة عاتكة بنت زيد

نسبها

اسمها عاتكة، والدها زيد بن عمرو بن نُفيل، والدتها أم كريز بنت الحضرمي، وأخوها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعمر بن الخطاب ابن عم أبيها.

تزوجت عاتكة ﵂ أربع مرات، الأولى من عبد الله بن أبي بكر ﵄ ثم خلفه عليها عمر بن الخطاب ﵁، ثم خلفه عليها الزبير بن العوام ﵁، ثم خطبها علي بن أبي طالب ﵁ فردَّته، ثم خطبها ابنه الحسين بن علي ﵁ فتزوجته.

المهاجرة الشاعرة

كانت عاتكة بارعة الجمال، حسنة الخَلْق والخُلُق، أسلمت في مكة، وبايعت رسول الله ﷺ حين مبايعة النساء له.

وهاجرت عاتكة إلى المدينة المنورة – حرسها الله تعالى – بعد أن أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة لتكون بقربه وتنهل من نبع هدايته، وكانت ﵂ بليغة فصيحة شاعرة، بل واحدة من أجود شواعر العرب، وقد برعت في الرثاء كثيراً، حيث تجلَّى ذلك في مرثياتها التي رثت بها أزواجها الواحد تلو الآخر، وحين وصفها العلاَّمة ابن كثير قال: «كانت من حِسان النساء وعُبَّادهنَّ».

حب عبد الله لها

رآها عبد الله بن أبي بكر ﵄ فهام بها هياماً شديداً، وتعلَّق بها قلبه، فخطبها، وتزوَّجها.

حتى إذا دخلت بيته وجد أنه لا يطيق البعد عنها مهما قلَّ الوقت أو كثر، وقد تجاوز عبد الله في حبِّ عاتكة كلَّ حدٍّ، حتى باتت تشغله عن عبادته، وتلهيه عن مواقيت الصلاة، كما جعله حبها يتخلَّف عن أغلب الغزوات والمشاهد مع رسول الله ﷺ ووالده الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ولما علم الصِّدِّيق أن سبب تقصير ولده عبد الله في عبادته حبه لعاتكة، خشي عليه من سوء العاقبة، ورأى أن ينقذه من أسرها، ويخلصه من ذلك الحب الطاغي، فأمره بطلاقها حتى يثوب إلى دينه، ويعود إلى مغازيه التي كان يحرص عليها.

كان قراراً عسيراً على عبد الله اتخاذه، غير أن برَّه، وحبَّه لأبيه الصِّدِّيق رضي الله عنه وطاعته، واحترامه له كان أحقَّ بالاتِّباع، وأولى من إيثار ذلك الحب الجامح المدمِّر.

ولم يجد عبد الله مفرّاً من تنفيذ رغبة والده مكرهاً، فطلَّقها، وابتعد كلٌّ منهما عن الآخر بجسده، لكن نيران الهوى في صدر عبد الله لم تنطفئ، بل زاد سعيرها اتِّقاداً، وها هو ذا يقول:

يَقُولُونَ: طَلِّقْهَا وَخَيِّمْ مَكَانَهَا ... مُقِيماً تُمَنِّي النَّفْسَ أَحْلاَمَ نَائِمِ
وَإِنَّ فِرَاقِي أَهْلَ بَيْتٍ جَمَعْتُهُمْ ... عَلَى كَثْرَةٍ مِنِّي لإِحْدَى العَظَائِمِ

وذات ليلةٍ وقد أرخى الليل سدوله، كان عبد الله مسهَّداً لا يفارقه طيف عاتكة الحبيبة، فأخذ ينشد بصوتٍ حزينٍ، مُفعمٍ بالأسى والألم، مُثقلٍ بتباريح النَّوى[1]، مُوقرٍ[2] بأنواع الهموم:

أَعَاتِكُ لَا أَنْسَاكِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ ... وَمَا نَاحَ قُمْرِيُّ الحَمَامِ المُطَوَّقِ
أَعَاتِكُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... إِلَيْكِ بِمَا تُخْفِي النُّفُوسُ مُعَلَّقُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلِي طَلَّقَ اليَوْمَ مِثْلَهَا ... وَلاَ مِثْلُهَا فِي غَيْرِ جُرْمٍ تُطَلَّقِ

(1) النَّوى: البُعْد.
(2) مُوقر: ممتلىء.

لَهَا خُلُقٌ جَزْلٌ وَرَأْيٌ وَمَنْصِبٌ وَخَلْقٌ سَوِيٌّ فِي الحَيَاءِ وَمُصْدِقُ

وكان الصِّدِّيق ﷺ قد صَعِدَ سطح داره في هدأة الليل ليتهجَّد، فلما سمع قول عبد الله تأثَّر كثيراً، ورقَّ له، وأشفق على ابنه، فأشرف عليه، وأمره بمراجعتها، فلما سمع عبد الله قول أبيه، صاح من فوره: أشهدك أني قد راجعتها، ومن فرط فرحته نادى غلامه أيمن وقال له: اذهب فأنت حر.

ثم إنه انطلق على جناح الشوق إلى عاتكة بالبشرى، وأخبرها بمراجعته لها، ثم أنشدها:

أَعَاتِكُ قَدْ طُلِّقْتِ فِي غَيْرِ رِيْبَةٍ وَرُوْجِعْتِ لِلأَمْرِ الَّذِي هُوَ كَائِنُ
كَـذِلِكَ أَمْـرُ اللهِ غَـادٍ وَرَائِحٌ عَلَى النَّاسِ فِيْهِ أُلْفَةٌ وَتَبَايُنُ
وَمَـا زَالَ قَـلْبِي لِلتَّفَـرُّقِ طَـائِراً وَقَلْبِي لِمَا قَدْ قَرَّبَ اللهُ سَاكِنُ
لِيَهْنِكِ أَنِّي لَا أَرَى فِيْهِ سَخْطَةً وَأَنَّكِ قَدْ تَمَّتْ عَلَيْكِ المَحَاسِنُ
وَأَنَّـكِ مِـمَّـنْ زَيَّـنَ اللهُ وَجْـهَـهُ وَلَـيْـسَ لِـوَجْـهٍ زَانَـهُ اللهُ شَـائِـنُ

ونظراً لحب عبد الله الشديد لها أهداها حديقة يملكها، بعد أن أعطته عهداً ألَّا تتزوَّج بعده، وعاش الزوجان في سعادةٍ ووئام، يتبادلان من كؤوس الحب أعذبها، ومن كلمات السعادة أجملها.

استشهاد زوجها الأول

ولكن صفاء الحياة لا يُرجى له دوام، فقد خرج عبد الله إلى غزوة الطائف مع رسول الله ﷺ وأصحابه، فأُصيب بسهمٍ، فمات شهيداً رحمه الله تعالى، وجعل منزله مع الشهداء البررة.

ولما جاء نعيه إلى عاتكة بكته بحرقةٍ ولوعةٍ، وأخذت ترثيه بقولها:

رُزِئْتُ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ وَبَعْدَ أَبِيْ بَكْرٍ وَمَا كَانَ قَصَّرَا
فَآلَيْتُ لَا تَنْفَكُّ عَيْنِي حَزِيْنَةً عَلَيْكَ وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرَا
مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ وَمَا طَرَدَ اللَّيْلُ الصَّبَاحَ المُنَوَّرَا

فَلِلَّهِ عَيْناً مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتَى كَرِيماً وَأَحْمَى فِي الهِيَاجِ وَأَصْبَرَا
إِذَا شُرِّعَتْ فِيْهِ الأَسِنَّةُ خَاضَهَا إِلَى المَوْتِ حَتَّى يَتْرُكَ الرُّمْحَ أَحْمَرَا

زواجها بعمر بن الخطاب ﷺ

وما زالت تبكيه إبَّان عدَّتها، فلما حلَّت بعث إليها عمر بن الخطاب ﷺ يخطبها، فأخبرته بعهدها لعبد الله وما أعطاها مقابل ذلك، فقال لها عمر بن الخطاب ﷺ: ألا تستفتين؟ فإنك تحرِّمين ما أحلَّ الله لكِ، فسألت علي بن أبي طالب ﷺ في هذا الشأن فقال: رُدِّي ما أعطاك إلى أهله وتزوَّجي من شئت.

فنفَّذت فتوى علي ﷺ وتزوَّجت عمر ﷺ وعاشت في كنفه، فاقتبست من علمه، وتعلَّمت من زهده.

وكان عمر سعيداً بها، وكانت تستأذنه إذا أراد الخروج إلى الصلاة لتحضر صلاة الجماعة معه في المسجد، فكان يقول لها: قد عرفت هواي في الجلوس... فتردُّ بقولها: لا أدع استئذانك، ولم يكن يمنعها ما دامت تستأذنه.

ولما طعنه أبو لؤلؤة المجوسيُّ بخنجره المسموم طعنةً أفضت إلى وفاته، راحت ترثيه بما يستدرُّ الدمع من المآقي المتحجرة، فقالت:

عَيْنُ جُوْدِي بِعَبْرَةٍ وَنَحِيْبِ لاَ تَمَلِّي عَلَى الإِمَامِ النَّجِيْبِ
فَجَعَتْنِي المَنُونُ بِالفَارِسِ المُعْـ ـلَمِ يَوْمَ الهَيَجِ وَالتَّلْبِيْبِ
عِصْمَةُ النَّاسِ وَالمُعِيْنُ عَلَى الدَّهْـ ـرِ وَغَيْثُ المَحْرُوْمِ وَالمَحْرُوْبِ
قُلْ لأَهْلِ الضَّرَّاءِ وَالبُؤْسِ مُوتُوا قَدْ سَقَتْهُ المَنُونُ كَأْسَ شَعُوبِ[1]

وقالت من مرثية أخرى تبكيه:

مَنْ لِنَفْسٍ عَادَهَا أَحْزَانُهَا وَلِعَيْنٍ شَفَّهَا طُوْلُ السَّهَدْ؟

(1) شَعُوب: اسم المنية.

جَسَدٌ لُفَّ فِي أَكْفَانِهِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَى ذَاكَ الجَسَدْ
فِيهِ تَفْجِيعٌ لِمَوْلَى غَارِمٍ لَمْ يَدَعْهُ اللهُ يَمْشِي بِسَبَدْ[1]

وقالت ترثيه:

وَفَجَعَنِي فَيْرُوزُ لَا دَرَّ دَرُّهُ بِأَبْيَضَ تَالٍ لِلْكِتَابِ مُنِيْبِ
رَؤُوفٍ عَلَى الأَدْنَى غَلِيْظٍ عَلَى العِدَى أَخِي ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ مُجِيْبِ
مَتَى مَا يَقُلْ لَا يَكْذِبُ القَوْلَ فِعْلُهُ سَرِيْعٍ إِلَى الخَيْرَاتِ غَيْرِ قَطُوبِ

ومما رثته به هذه الأبيات التي تقول فيها:

مُنِعَ الرُّقَادُ فَعَادَ عَيْنِي عِيْدُ مِمَّا تَضَمَّنَ قَلْبِيَ المَعْمُودُ
يَا لَيْلَةً حُبِسَتْ عَلَيَّ نُجُوْمُهَا فَسَهِرْتُهَا وَالشَّامِتُونَ هُجُودُ
قَدْ كَانَ يُسْهِرُنِي جِوَارُكَ مَرَّةً فَاليَومَ حُقَّ لِعَيْنِيَ التَّسْهِيْدُ
أَبْكِي أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ وَدُوْنَهُ لِلزَّائِرِيْنَ صَفَائِحٌ وَصَعِيْدُ

زواجها من الزبير

وتَسَلَّبَتْ بالسواد إلى أن انقضت عدَّتها، ولما علم الزبير بن العوَّام ﷺ أنها حلَّت طلب أن يتزوجها، فوافقت عليه وتزوَّجته.

وكان الزبير ﷺ شديد الغيرة، وكانت عاتكة بادنة[2] فأمرها ألاَّ تخرج إلى المسجد، فقالت له: ألأجل غيرتك أهجر المصلَّى الذي صلَّيت فيه مع رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمر؟!! قال: لا أمنعك إذاً!، وتوضَّأ ﷺ ثم خرج قبلها إلى صلاة الفجر، وتوارى عن طريقها بحيث يراها دون أن تراه، وكان الظلام مستحكماً فلما مرَّت ضرب قفاها بيده، ثم تابع طريقه إلى المسجد، وعادت عاتكة إلى منزلها وهي تسترجع، فلما فرغ من صلاته، رجع إلى منزله فقال لها: ما شهدتك في المسجد، فما بالك؟، قالت: لقد

(1) السَّبَدُ: القليل من الشعر، وتقصد أنه ذهب فقيراً لا شيء له.
(2) بادنة: شديدة السُّمنة.

ظهر الفساد في الناس، ثم روت له ما حصل معها، وأخبرته أن صلاتها في بيتها خير لها، فسُرَّ بما سمع، وبَلَغَ رغبته دون كبير عناء!

ثم خرج الزبير يوم الجمل في صف معاوية ضدَّ علي ﷺ فلما ذكَّره علي بقول النبي ﷺ إنه سيقاتله وهو له ظالم، اعتزل القتال، وخرج من ساحته، ووقف يصلي، فرآه ابن جرموز فقتله وهو في صلاته، ثم ذهب إلى علي مستبشراً ليخبره ظاناً أنه سيثيبه على فعلته، فلما اسْتَأْذَنَ ابْنُ جُرْمُوزٍ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»**[1].

وفي رواية أخرى عَنْ زِرٍّ بْنِ حُبَيْشٍ أَنَّ عَلِيًّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ قَاتِلَ الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: لِيَدْخُلْ قَاتِلُ ابْنِ صَفِيَّةَ النَّارَ، ثم قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ الزُّبَيْرَ حَوَارِيِّي»**[2].

وفي رواية أخرى عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ قِيلَ لَهُ: إِنَّ قَاتِلَ الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لَيَدْخُلَنَّ قَاتِلُ ابْنِ صَفِيَّةَ النَّارَ، ثُمَّ قَالَ: أما وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَإِنَّ حَوَارِيِّي الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ»**[3].

فلما سمع ابن جرموز ما سمع من عليٍّ ﷺ قتل نفسه، وعادت عاتكة إلى الحِداد من جديد، وقالت ترثي الزبير:

---

(1) رواه: أحمد/ كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ باب: ومن مسند علي بن أبي طالب/ برقم: (643).

(2) رواه: أحمد/ كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ باب: ومن مسند علي بن أبي طالب/ برقم: (760).

(3) رواه: أحمد/ كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ باب: ومن مسند علي بن أبي طالب/ برقم: (760).

غَدَرَ ابْنُ جَرْمُوزٍ بِفَارِسِ بُهْمَةٍ[1] يَوْمَ اللِّقَاءِ وَكَانَ غَيْرَ مُعَرَّدِ[2]
يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ لاَ طَائِشاً رَعْشَ الجَنَانِ وَلاَ اليَدِ
شُلَّتْ يَمِينُكَ إِنْ قَتَلْتَ لَمُسْلِماً حَلَّتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ المُتَعَمِّدِ
إِنَّ الزُّبَيْرَ لَذُو بَلاءٍ صَادِقٍ سَمْحٌ سَجِيَّتُهُ كَرِيمُ المَشْهَدِ
كَمْ غَمْرَةٍ قَدْ خَاضَهَا لَمْ يَثْنِهِ عَنْهَا طِرَادُكَ يَا ابْنَ فَقْعِ[3] القِرْدَدِ[4]
فَاذْهَبْ فَمَا ظَفِرَتْ يَدَاكَ بِمِثْلِهِ فِيمَنْ مَضَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي

زواجها من الحسين ﷺ

ولما انقضت عدة عاتكة، جاءها علي بن أبي طالب خاطباً، فقالت له عاتكة: يا أمير المؤمنين! أنت بقية الناس، وسيد المسلمين، وإني أَنفُس بك عن الموت، فتركها علي وأعرض عن الزواج منها، وقد رُوي أن عبد الله بن عمر ﷺ قال: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة، وشاعت هذه المقولة بين الناس، ولكنَّ الحسين بن علي لم يأبه لهذه الإشاعة، فتقدَّم لخطبتها، وتمَّ الزواج.

ولعل الإشاعة كانت حقيقة مؤكَّدة، لأن الحسين ﷺ استُشهد في كربلاء يوم تعرَّض آل بيت النبي ﷺ لأشنع مذبحة عرفها الناس.

وقد شهدت عاتكة مصرعه بأم عينها، ومما قالته في رثاء الحسين ﷺ:

وَاحُسَيْناً وَلَا نَسِيتُ حُسَيْناً أَقْصَدَتْهُ[5] أَسِنَّةُ[6] الأَعْدَاءِ

(1) البُهْمَةُ: الأمر المعضل.
(2) المُعَرَّد: من التعريد، وهو الهرب.
(3) الفَقْعُ: الكمأة البيضاء الرخوة.
(4) القِرْدَدُ: ما غُلظ وارتفع من الأرض.
(5) أقصدته: أصابته.
(6) الأسنة: جمع السِّنان، وهو الرمح.

غَـادَرُوهُ بِـكَـرْبَـلَاءَ صَـرِيْـعـاً جَادَتِ المُزْنُ[1] فِي ذُرَا كَرْبَلاءِ

وكانت عاتكة هي التي رفعت خدَّه عن الثرى الذي رواه بدمائه الطاهرة، وضمَّته إلى صدرها ضمَّة الوداع الأخير.

ولما أمضت عدتها، أعرضت عن الزواج نهائياً، وجاءها مروان بن الحكم خاطباً فأبت، وقالت: لستُ بمتَّخذةٍ حَماً[2] بعد رسول الله ﷺ، وظلَّت محافظة على هذا العهد حتى حضرها الموت في السنة الأربعين للهجرة.

زوج الشهداء

رحم الله تعالى عاتكة بنت زيد زوج الشهداء الأربعة عبد الله بن أبي بكرٍ، وعمر بن الخطاب، والزبير بن العوَّام، والحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، ورحمهم أجمعين، وأحسن نزلها ونزلهم يوم الدين.

لقد عاشت حياة ظاهرها السرور، وباطنها الأسى والآلام، وكم لقيت من العذاب إثر نعي أزواجها إليها الواحد بعد الآخر! ولكن تلك مشيئة الله، وقضاؤه الذي ليس له رادٌّ، وما ينبغي لأحدٍ إزاءه إلاَّ الرضا بمشيئته، والتسليم بقضائه المحتوم، فهو الآمر الناهي وحده في هذا الكون، لامبدل لأمره، وهو الحاكم الذي لا معقِّب لحكمه، والقائل في كتابه المبين: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 29]، فالأمر كله إليه ونواصي الخلق بين يديه، لا يملكون من الأمر شيئاً، له الحكم وعليهم التسليم لحكم حكيم عليم، فسبحانه من إلهٍ عظيم، ومدبِّرٍ كريم!!.

وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ بعد زواجه بعاتكة، دعا إليه عدداً من الصحابة ﷺ وفيهم علي بن أبي طالب ﷺ.

فقال له علي: إن لي إلى عاتكة حاجة، أريد أن أُذَكِّرَها إياها، فقل

(1) المُزْنُ: جمع المُزْنَة، وهي السحابة التي تحمل الماء.
(2) الحمو: أبو الزوج.

تستتر حتى أُكلِّمها، فقال لها عمر: استتري يا عاتكة، فإن ابن أبي طالب يريد أن يكلمك، فأخذت عليها مِرْطَهَا[1] فلم يظهر منها إلاَّ ما بدا من براجمها[2]، فقال علي: يا عاتكة أتعرفين من القائل:

فَآلَيْتُ لَا تَنْفَكُّ عَيْنِي حَزِينَةً عَلَيْكَ وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرَا
مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ وَمَا طَرَدَ اللَّيْلُ الصَّبَاحَ المُنَوَّرَا

فقال له عمر ﷺ: ويحك يا ابن أبي طالب!! ما أردتَ إلى هذا؟ فقال علي ﷺ: وما أرادت أن تقول ما لا تفعل، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾[3] [الصف: 2، 3]، وهذا شيءٌ كان في نفسي، فلم أرى أن أدعه، وأحببت والله أن يخرج.. فقال عمر ﷺ: يا ابن أبي طالب، أما علمت أن ما حسَّن الله فهو حَسَنٌ؟! (يعني الزواج).

وقد عاشت عاتكة بعد الحسين ﷺ عابدة زاهدة، كانت لا تغادر بيتها إلا في الضرورة القصوى، وعكفت على عبادتها رافضة كل من تقدَّم لخطبتها، عازفة عن الدنيا وما فيها.

ولما دعاها الأجل لبَّت نداءه، وذهبت إلى لقاء ربها، رحمها الله تعالى، ورضي عنها.

(1) المِرْطُ: غطاء من صوف.
(2) البراجم: مفاصل الأصابع.
(3) المَقْتُ: البغض والكراهية.

obeikandl.com